الدرس الرابع والعشرون

تفسير سورة الجن [١٠ : ٢٠]

{وَأَنَّا لَا نَدْرِي أَشَرٌّ أُرِيدَ بِمَنْ فِي الْأَرْضِ أَمْ أَرَادَ بِهِمْ رَبُّهُمْ رَشَدًا (١٠) وَأَنَّا مِنَّا الصَّالِحُونَ وَمِنَّا دُونَ ذَلِكَ كُنَّا طَرَائِقَ قِدَدًا (١١) وَأَنَّا ظَنَنَّا أَنْ لَنْ نُعْجِزَ اللَّهَ فِي الْأَرْضِ وَلَنْ نُعْجِزَهُ هَرَبًا (١٢) وَأَنَّا لَمَّا سَمِعْنَا الْهُدَى آمَنَّا بِهِ فَمَنْ يُؤْمِنْ بِرَبِّهِ فَلَا يَخَافُ بَخْسًا وَلَا رَهَقًا (١٣) وَأَنَّا مِنَّا الْمُسْلِمُونَ وَمِنَّا الْقَاسِطُونَ فَمَنْ أَسْلَمَ فَأُولَئِكَ تَحَرَّوْا رَشَدًا (١٤) وَأَمَّا الْقَاسِطُونَ فَكَانُوا لِجَهَنَّمَ حَطَبًا (١٥) وَأَلَّوِ اسْتَقَامُوا عَلَى الطَّرِيقَةِ لَأَسْقَيْنَاهُمْ مَاءً غَدَقًا (١٦) لِنَفْتِنَهُمْ فِيهِ وَمَنْ يُعْرِضْ عَنْ ذِكْرِ رَبِّهِ يَسْلُكْهُ عَذَابًا صَعَدًا (١٧) وَأَنَّ الْمَسَاجِدَ لِلَّهِ فَلَا تَدْعُوا مَعَ اللَّهِ أَحَدًا (١٨) وَأَنَّهُ لَمَّا قَامَ عَبْدُ اللَّهِ يَدْعُوهُ كَادُوا يَكُونُونَ عَلَيْهِ لِبَدًا (١٩) قُلْ إِنَّمَا أَدْعُو رَبِّي وَلَا أُشْرِكُ بِهِ أَحَدًا (٢٠)}.

قوله: ﴿وَأَنَّا لَا نَدْرِي أَشَرٌّ أُرِيدَ بِمَنْ فِي الْأَرْضِ أَمْ أَرَادَ بِهِمْ رَبُّهُمْ رَشَدًا﴾[الجن:١٠].

لما تبين للجن أن السماء محفوظةٌ مصونة، وأنهم متعرضون للقصف بالشُهب، اكتشفوا أن ثم أمرٌ سيقع في الأرض؛ إمَّا أمر خيرٍ أو شر، استنبطوا ذلك؛ لأنَّ هذه المقدمات والإرهاصات تشير إليه؛ فقالوا: ﴿وَأَنَّا لَا نَدْرِي أَشَرٌّ أُرِيدَ بِمَنْ فِي الْأَرْضِ أَمْ أَرَادَ بِهِمْ رَبُّهُمْ رَشَدًا﴾، فهذا هو الذي دعاهم أن يذهبوا بعثاتٍ في أرجاء الأرض ليتحروا الخبر.

ومن الفوائد اللطيفة كمال أدب مؤمني الجن، وذلك أنهم أضافوا الشر إلى ما لم يسمَّ فاعله (أُرِيدَ)، وأضافوا الخير إلى الاسم الصريح لله تعالى، (أَرَادَ بِهِمْ رَبُّهُمْ

هذه المادة لم تراجع على الشيخ حفظه الله

رَشَدًا)، فإنَّ الشر لا يُضاف إلى الله تكرمةً له، وإلا فإنَّ الله خالق كل شيء، وهذا مما ينبغي أن يتأدب به المؤمن فلا يضيف ما لا يليق إلى الله ﷻ، فلا يقول مثلًا: يا خالق الجعلان والخنافس والقردة والخنازير، وإن كان هو خالقها، لكن لا يليق أن يفردها بالذكر. ولهذا نهى النبي ﷺ أن يقول الرجل: (عبدي وأمتي) لما يشعر من مضاهاة الله ﷻ. وينبغي أن تضاف الأمور غير المستحبة إلى الشيطان، كما قال فتى موسى لموسى: ﴿وَمَا أَنْسَانِيهُ إِلَّا الشَّيْطَانُ أَنْ أَذْكُرَهُ﴾[الكهف:٦٣]، فنسب الإنساء إلى الشيطان.

يقول اللهﷻ عن هؤلاء المؤمنين: ﴿وَأَنَّا لا نَدْرِي أَشَرٌّ أُرِيدَ بِمَنْ فِي الأَرْضِ أَمْ أَرَادَ بِهِمْ رَبُّهُمْ رَشَدًا (١٠) وَأَنَّا مِنَّا الصَّالِحُونَ وَمِنَّا دُونَ ذَلِكَ كُنَّا طَرَائِقَ قِدَدًا (١١) وَأَنَّا ظَنَنَّا أَنْ لَنْ نُعجِزَ اللهَّ فِي الأَرْضِ وَلَنْ نُعْجِزَهُ هَرَبًا﴾[الجن:١٠-١٢].

﴿وَأَنَّا مِنَّا الصَّالِحُونَ وَمِنَّا دُونَ ذَلِكَ كُنَّا طَرَائِقَ قِدَدًا﴾[الجن:١١].

وصفوا جماعتهم وفئتهم بأنهم طوائف، وطرائق، وفرق، وأوزاع، متفاوتون في الصلاح، ففيهم الصالحون الممتثلون لأمر الله المجتنبون لنهيه، ومنهم دون ذلك؛ هم الفسّاق والكفار، ﴿ كُنَّا طَرَائِقَ قِدَدًا﴾ حالهم كحال الآدميين مذاهب شتى.

﴿ ظَنَنَّا ﴾ هنا بمعنى أيقنا، أي: اعتقدنا اعتقادًا جازمًا لا مرية فيه، أنه لا مفر من أمر الله لا في الأرض ولا في السماء كما قال الله ﷻ: ﴿يَا مَعْشَرَ الْجِنِّ وَالإِنسِ إِنِ اسْتَطَعْتُمْ أَنْ تَنفُذُوا مِنْ أَقْطَارِ السَّمَوَاتِ وَالأَرْضِ فَانفُذُوا لا تَنفُذُونَ إِلَّا بِسُلْطَانٍ﴾[الرحمن:٣٣]، فهم قد أيقنوا رحمهم الله أن هذا لم يعد بمقدورهم، وأن الله ﷻ محيطٌ بهم.

هذه المادة لم تراجع على الشيخ حفظه الله

قوله: ﴿وَأَنَّا لَمَّا سَمِعْنَا الْهُدَى آمَنَّا بِهِ فَمَنْ يُؤْمِنْ بِرَبِّهِ فَلا يَخَافُ بَخْسًا وَلا رَهَقًا﴾[الجن:١٣].

هذا منهم رحمهم الله نوعٌ من الاغتباط بنعمة الله عليهم، والتحدث بنعمة الله تعالى وليس من قبيل المباهاة والمفاخرة.

قوله: ﴿وَأَنَّا لَمَّا سَمِعْنَا الْهُدَى آمَنَّا بِهِ فَمَنْ يُؤْمِنْ بِرَبِّهِ فَلا يَخَافُ بَخْسًا وَلا رَهَقًا﴾، أي: لا يخشى أن ينتقص من ثوابه وأجره، ولا يخشى أيضًا أن يلحقه عنتٌ وأذى وضرر، وهذا مصداق قول الله تعالى: ﴿فَمَنِ اتَّبَعَ هُدَايَ فَلا يَضِلُّ وَلا يَشْقَى (١٢٣) وَمَنْ أَعْرَضَ عَنْ ذِكْرِي فَإِنَّ لَهُ مَعِيشَةً ضَنكًا وَنَحْشُرُهُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ أَعْمَى﴾[طه:١٢٣-١٢٤]، قال ابن عباس: تضمن الله لمن قرأ القرآن، واتبع ما فيه أن لا يضل في الدنيا ولا يشقى في الآخرة، ثم تلا هذه الآية (فَمَنِ اتَّبَعَ هُدَايَ فَلا يَضِلُّ وَلا يَشْقَى)[1]. فهذا وجْدٌ وجده هؤلاء المؤمنون من آثار الإيمان.

كما قال ﷻ: ﴿وَمَنْ يَعْمَلْ مِنَ الصَّالِحَاتِ وَهُوَ مُؤْمِنٌ فَلا يَخَافُ ظُلْمًا وَلا هَضْمًا﴾[طه:١١٢]، فالهضم هو البخس، وكذلك الظلم فإنه يقابل الأخرى، وكذلك قال الله تعالى: ﴿مَنْ عَمِلَ صَالِحًا مِنْ ذَكَرٍ أَوْ أُنثَى وَهُوَ مُؤْمِنٌ فَلَنُحْيِيَنَّهُ حَيَاةً طَيِّبَةً وَلَنَجْزِيَنَّهُمْ أَجْرَهُمْ بِأَحْسَنِ مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ﴾[النحل:٩٧]، هذه مواعيد الله ﷻ محكماتٌ لا تتخلف.

﴿فَمَنْ يُؤْمِنْ بِرَبِّهِ فَلا يَخَافُ بَخْسًا وَلا رَهَقًا (١٣) وَأَنَّا مِنَّا الْمُسْلِمُونَ وَمِنَّا الْقَاسِطُونَ﴾[الجن:١٣-١٤].

---

(١) تفسير الطبري: (١٨/ ٣٨٩).

عاد التقسيم قسمين، كما قسم الله تعالى في قوله: ﴿هُوَ الَّذِي خَلَقَكُمْ فَمِنْكُمْ كَافِرٌ وَمِنْكُمْ مُؤْمِنٌ﴾[التغابن:٢]، فكما أن هذا واقعٌ في الآدميين فهو واقعٌ أيضًا في الجن، ﴿وَأَنَّا مِنَّا الْمُسْلِمُونَ ﴾ والإسلام: هو الاستسلام لله بالتوحيد، والانقياد له بالطاعة، والخلوص من الشرك.

﴿وَمِنَّا الْقَاسِطُونَ﴾ فالقاسطون هم الجائرون المائلون بخلاف المقسطون فهم العادلون كما قال ﷺ: (إِنَّ الْمُقْسِطِينَ عِنْدَ اللهِ عَلَى مَنَابِرَ مِنْ نُورٍ)[٢].

﴿فَمَنْ أَسْلَمَ فَأُوْلَئِكَ تَحَرَّوْا رَشَدًا﴾[الجن: ١٤]، أي: الذين سلكوا هذا المسلك وهو الإسلام لله والانقياد له، فقد تخيروا لأنفسهم وتوخوا الرشد في حالهم ومآلهم.

﴿وَأَمَّا الْقَاسِطُونَ فَكَانُوا لِجَهَنَّمَ حَطَبًا﴾[الجن:١٤-١٥].

القاسطون الذين حادوا ومالوا وجاروا عن طريق الاستقامة فهم حطب جهنم، وهذا يدل على أن الجن يعذبون في النار كما يعذب الإنس، وإن كانوا قد خُلقوا من نار، لكن النار التي خُلِقوا منها ليست بشيء بالنسبة إلى نار جهنم، قال ربنا ﷻ: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا قُوا أَنفُسَكُمْ وَأَهْلِيكُمْ نَارًا وَقُودُهَا النَّاسُ وَالْحِجَارَةُ﴾[التحريم:٦]، ولفظ الناس يشمل الإنس والجن، كما في سورة (الناس).

قوله: ﴿وَأَلَّوِ اسْتَقَامُوا عَلَى الطَّرِيقَةِ لَأَسْقَيْنَاهُمْ مَاءً غَدَقًا﴾[الجن:١٦].

قد اختلف المفسرون في المراد بالطريقة فقيل: إن المراد بالطريقة الإسلام والهدى والاستقامة، ﴿لَأَسْقَيْنَاهُمْ مَاءً غَدَقًا﴾ أي: لكافأناهم وجازيناهم بأن نرسل

---

(٢) أخرجه مسلم رقم (١٨٢٧).

هذه المادة لم تراجع على الشيخ حفظه الله

السماء عليهم مدرارًا فيشربونه ماءً غدقًا، وافرًا، هنيئًا، مريئًا، ويوافق هذا قول الله ﷻ:﴿وَلَوْ أَنَّهُمْ أَقَامُوا التَّوْرَاةَ وَالإِنجِيلَ وَمَا أُنزِلَ إِلَيْهِم مِّن رَّبِّهِمْ لَأَكَلُوا مِن فَوْقِهِمْ وَمِن تَحْتِ أَرْجُلِهِم﴾[المائدة:٦٦].

وقول الله ﷻ:﴿وَلَوْ أَنَّ أَهْلَ الْقُرَى آمَنُوا وَاتَّقَوْا لَفَتَحْنَا عَلَيْهِم بَرَكَاتٍ مِّنَ السَّمَاءِ وَالأَرْضِ﴾[الأعراف:٩٦]، فهذا توجيهها على القول بأن الطريقة هي الإسلام والاستقامة والهدى، وهذا قول ابن عباس، وقتادة، والسُدِّي، وآخرون.

وذهب بعض العلماء، أو ذهب بعض المفسرين ومنهم لاحق بن حميد -رحمه الله-: إلى أن المراد بالطريقة: الضلالة، أي: لو استمروا على ضلالتهم لأسقيناهم ماءً غدقًا فتنةً لهم، كما قال الله ﷻ: ﴿لِنَفْتِنَهُمْ فِيهِ﴾، وقول الله ﷻ: ﴿فَتَحْنَا عَلَيْهِمْ أَبْوَابَ كُلِّ شَيْءٍ ﴾[الأنعام:٤٤]، فيكون هذا من باب الاستدراج لهم، كقول الله تعالى: ﴿أَيَحْسَبُونَ أَنَّمَا نُمِدُّهُم بِهِ مِن مَّالٍ وَبَنِينَ (٥٥) نُسَارِعُ لَهُمْ فِي الْخَيْرَاتِ بَل لَّا يَشْعُرُونَ﴾[المؤمنون:٥٥-٥٦].

ثُمَّ يأتي توجيه الكلام بعدها على كلا القولين، فقوله تعالى:﴿لِنَفْتِنَهُمْ فِيهِ﴾[الجن:١٧]، على القول بأن المراد بالطريقة هي الإسلام والهدى والاستقامة، أي: لنختبرهم ونبتليهم، كما قال سليمان ؑ: ﴿قَالَ هَذَا مِن فَضْلِ رَبِّي لِيَبْلُوَنِي أَأَشْكُرُ أَمْ أَكْفُرُ﴾[النمل:٤٠]، فلا غرابة ولا غضاضة في أن يكون هذا واردًا على عموم الناس، ما دام واردًا في حق نبيٍ من أنبياء الله.

وعلى القول الآخر، أي: ليكون لهم لهوًا ومتاعًا، ﴿ذَرْهُمْ يَأْكُلُوا وَيَتَمَتَّعُوا وَيُلْهِهِمُ الأَمَلُ فَسَوْفَ يَعْلَمُونَ﴾[الحجر:٣].

هذه المادة لم تراجع على الشيخ حفظه الله

ثُمَّ قال تعالى: ﴿وَمَنْ يُعْرِضْ عَنْ ذِكْرِ رَبِّهِ يَسْلُكْهُ عَذَابًا صَعَدًا﴾[الجن:١٧].

من يعرض عن ذكر ربه فلا يقيم له وزنًا، ولا يجعل الله تعالى نصب عينيه؛ بل يغفل الغفلة المطبقة. أما الغفلة الطارئة فإنها تعتري حتى المؤمنين، فيدركهم فتورٌ وغفلة، لكن المراد هنا الغفلة المطبقة كما قال تعالى: ﴿وَلَقَدْ ذَرَأْنَا لِجَهَنَّمَ كَثِيرًا مِنَ الْجِنِّ وَالإِنسِ لَهُمْ قُلُوبٌ لا يَفْقَهُونَ بِهَا وَلَهُمْ أَعْيُنٌ لا يُبْصِرُونَ بِهَا وَلَهُمْ آذَانٌ لا يَسْمَعُونَ بِهَا أُوْلَئِكَ كَالأَنْعَامِ بَلْ هُمْ أَضَلُّ أُوْلَئِكَ هُمُ الْغَافِلُونَ﴾[الأعراف:١٧٩]، وتأمل كيف أردفها الله بقوله: ﴿وَلِلَّهِ الأَسْمَاءُ الْحُسْنَى﴾[الأعراف:١٨٠]، فالعلم بالله هو الذكر.

أمَّا الغافلون الذين يملئون المدرجات، والميادين والساحات ويأكلون ويشربون، ويتقلبون ويتفكهون ولا يرعون لله حقًا فهؤلاء أحط من الأنعام؛ لأنهم عطلوا ما متعهم الله تعالى وأمدهم به من أدوات التفكير والتعقل والانتفاع فقد توعدهم بقوله: ﴿يَسْلُكْهُ عَذَابًا صَعَدًا﴾، أي: أليمًا شديدًا مهينًا متعاظمًا، وكأن في كلمة (صعدًا) ما يدل على التنامي وأنه في ازديادٍ مستمر لا يُفتَّر عنهم، وقيل: أن (صعدًا) بمعنى (صعودًا)، جبلٌ يرتقى في النار، وقيل: بئرٌ في جهنم، والمقصود أنه عذابٌ أليمٌ شديد.

ثُمَّ قال الله تعالى: ﴿وَأَنَّ الْمَسَاجِدَ لِلَّهِ فَلا تَدْعُوا مَعَ اللَّهِ أَحَدًا﴾[الجن:١٨].

هذا التوحيد النقي، إمَّا أن المراد بالمساجد بيوت الله تعالى التي يُسجد لله تعالى فيها، فهي محل العبادة، فلا يجوز صرف هذه العبادة لغير الله تعالى، فهي لله يختص بها سبحانه لا تُصرف لغيره؛ بل له وحده، وإمَّا أن المراد بالمساجد هي

هذه المادة لم تراجع على الشيخ حفظه الله

أعضاء السجود، كقول النبي ﷺ: (أُمِرْتُ أَنْ أَسْجُدَ عَلَى سَبْعَةِ أَعْظُمٍ)[٣]، الجبهة، وأشار إلى أنفه واليدين، والركبتين، والقدمين، ولا تعارض بين المعنيين، والقاعدة أنه إذا أمكن حمل الآية على معنيين على وجهٍ لا تعارض فيه، فينبغي الأخذ بذلك إعمالًا لكلا المعنيين.

فالسجود لله، فلا يجوز أن يُشرك معه أحدٌ في العبادة، كما أن الدعاء من أجلى مظاهر العبادة، ﴿فَلا تَدْعُوا مَعَ اللَّهِ أَحَدًا﴾؛ لأنَّ حقيقة الدعاء افتقارٌ وانكسارٌ واضطرار إلى الله ﷻ، وهذه هي العبودية، وقد جاء في الحديث الصحيح (الدُّعَاءُ هُوَ الْعِبَادَةُ)[٤]، وفي حديثٍ فيه مقال (الدُّعَاءُ مُخُّ العِبَادَةِ)[٥]، والله تعالى يجعل هذا بدلًا من هذا، حيث يقول الله ﷻ: ﴿وَقَالَ رَبُّكُمُ ادْعُونِي أَسْتَجِبْ لَكُمْ إِنَّ الَّذِينَ يَسْتَكْبِرُونَ عَنْ عِبَادَتِي﴾[غافر:٦٠]، ولم يقل: دعائي؛ لأنَّ الدعاء هو العبادة.

﴿وَأَنَّهُ لَمَّا قَامَ عَبْدُ اللَّهِ يَدْعُوهُ كَادُوا يَكُونُونَ عَلَيْهِ لِبَدًا﴾[الجن:١٨-١٩].

عبد الله نبينا ﷺ، فربما كان هذا من تمام كمال كلام مؤمني الجن يصفون ما جرى منهم، وربما كان خبرًا من الله ﷻ. فنبينا ﷺ لما قام يدعو ربه ﷻ بوادي نخلة أو في موضع في سوق عكاظ، ﴿كَادُوا يَكُونُونَ عَلَيْهِ لِبَدًا﴾ أي يركب بعضهم بعضا لشدة حرصهم وانجذابهم لسماع ما يقرؤه النبي ﷺ، فيترادفون؛ ليكونوا أقرب إليه ويستمعوا إلى ما .أنزل عليه

---

(٣) أخرجه البخاري رقم (٨١٢)، ومسلم رقم (٤٩٠).

(٤) أخرجه أحمد رقم (١٨٣٩١)، وأبو داود رقم (١٤٧٩)، والترمذي (٢٩٦٩)، وابن ماجه رقم (٣٨٢٨).

(٥) أخرجه أحمد رقم (١٨٣٥٢)، والترمذي رقم (٣٣٧١)، وقال: هذا حديث غريب من هذا الوجه لا نعرفه إلا من حديث ابن لهيعة. وضعفه الألباني.

هذه المادة لم تراجع على الشيخ حفظه الله

وقيل: إن هذا وصفٌ من مؤمني الجن لأصحاب النبي ﷺ، وأنه إذا قام يدعو ويصلي فإنهم يلتئمون حوله وينضمون إليه؛ حتى يزحم بعضهم بعضًا.

وثَمَّ قولٌ ثالث في هذه الآية ذكره ابن جرير ومال إليه، وهو أن المشركين لما قام رسول الله ﷺ يدعوهم إلى توحيد الله، أرادوا أن يصدوه عن دعوته، وأن يطفئوا نور الله تعالى، ويمنعوه من إبلاغ وحيه، ﴿كَادُوا يَكُونُونَ عَلَيْهِ لِبَدًا﴾.

وعزز هذا المعنى كما قال ابن كثير-رحمه الله-، قوله بعد ذلك: ﴿قُلْ إِنَّمَا أَدْعُو رَبِّي وَلا أُشْرِكُ بِهِ أَحَدًا﴾، [الجن:٢٠].

فكأنَّ هذه الجملة ردٌّ على فعلهم الذي فعلوه. والأقرب والله أعلم أن هذا في وصف حال الجن، وأن الجن بحكم طبيعتهم وتركيبهم يركب بعضهم بعضًا خلاف الإنسان، لحرصهم وتشوفهم لسماع ما أُنزل على النبي ﷺ ﴿كَادُوا يَكُونُونَ عَلَيْهِ لِبَدًا﴾.

فجاءت هذه الآيات بعد ذلك لتبين مقام النبوة، ووظيفة النبي، وحدوده لتقضي على كل تعلقٍ شركي، وتبين حقيقة النبي، ﴿قُلْ إِنَّمَا﴾[الجن:٢٠]، وهي أداة حصر،﴿أَدْعُو رَبِّي﴾[الجن:٢٠]، وحده لا سواه، لا أدعوا أحدًا غيره، ﴿وَلا أُشْرِكُ بِهِ أَحَدًا﴾[الجن:٢٠]، دومًا يأتي النفي مع الإثبات حتى يتم التوحيد الخالص، كما في كلمة التوحيد (لا إله إلا الله) نفيٌ وإثبات، فقوله: ﴿قُلْ إِنَّمَا أَدْعُو رَبِّي﴾ إثبات وقوله: ﴿وَلا أُشْرِكُ بِهِ أَحَدًا﴾ نفي.

وشواهد هذا كثيرة وهذا يدل على تبرؤ النبي ﷺ من جميع صور الشرك؛ قليله وكثيره؛ لأنَّ (أحدًا) نكرةٌ في سياق النفي، فدلت على العموم.

هذه المادة لم تراجع على الشيخ حفظه الله